التاريخ فى سير أبطاله

ابراهام لنكولن

هدية الأحراج الى عالم المدنية

للأستاذ محمود الخفيف

يا شباب الوادى ! خذوا معانى العظمة فى نفسها الأعلى من سيرة هذا العصامي العظيم ... ...

— ٢١ —

وأقام لنكولن فى الفندق ينتظر يوم الاحتفال ؛ وإنه ليحس أنه كالغريب فى هذه المدينة العظيمة ؛ ولقد كان كثير من أهلها يتوقعون قبل وصوله أن تصلهم الأنباء عن مقتله فى الطريق ؛ فلما فوت على الماكرين قصدهم ودخل المدينة ولم تزل غافية أصاب المؤتمرين به كمد وغم ؛ ولكن هل فاتت الفرصة فلا سبيل لهم إليه بعدها ؟ كلا فما يزال الكائدون يتربصون به حتى لقد سرت فى الناس إشاعة قوية أنه لن يحتفل بالرئيس الجديد ؛ وأنه راجع إلى سبرنجفيلد قبل ذلك اليوم حياً أو ميتاً ...

وكانت المدينة إلى أهل الجنوب أكثر ميلاً منها إلى أهل الشمال ؛ وكان سادتها وكبراؤها ممن يقتنون العبيد ويتمسكون بنظام العبيد ؛ وكانت تقع عين القادم إلى المدينة على العبيد رائحين غادين ؛ ولقد كان هذا منظراً تنفر منه عينا لنكولن وهو يطل على المدينة من الفندق ... وكان ذوو النفوذ من أهلها يكرهون الجمهوريين ويسمونهم الجمهوريين السود ... لذلك أحس إبراهام أنه فى جو غير جوه كالنبات نقل إلى حيث لا يجدى معه رى ولا ينفع غذاء

وجلس إبراهام يفكر ويتدبر ، فاذا امتد إلى الحاضر فكره رأى كيف تشيع الفتنة وكيف يستفحل الشر ، وكيف يزلزل بناء الاتحاد حتى ليوشك أن ينهار ... وإذا استشرفت للمستقبل نفسه رأى ظلمات فوقها ظلمات ؛ فالحرب كما يبدو له واقعة لا محالة ، ما لم يقع ما ليس فى حسبان أحد ... وهى إذا شبت نارها واستعرت اكتوى بسعيرها أبناء الوطن الواحد وأصحاب المصلحة الواحدة ؛ إنها حرب سوف تكون بين نصفى شعب بقاؤه وسعادته لن يكونا إلا فى اتحاد كلمته والتئام شمله ...

وليت الفتنة اقتصرت على الناس ولم تمتد إلى الحكومة ؛ إذاً لكانت أهون على الرئيس وعلى الشعب .. هاهى ذى تندس حتى تتغلغل فى وحدات الجيش والبحرية والسادة المسؤولين من رجال الدولة ؛ ولقد وقف بيوكانون حائراً لا يدرى ما يأخذ مما يدع حتى لم يعد فى إمكانه أن يحسم الشر ؛ فكان بذلك وجوده على رأس الحكومة يومئذ شراً على شر

ولكن إبراهام لم يكن بيوكانون ؛ وحسبه عزمه الصمم الجبار فى هذا الموقف الرهيب ؛ هذا إلى إخلاصه وكراهته للعدوان ويقينه الذى لا يداخله شك ولا يحوم حوله شيء مما ينسج الباطل من وهم وما يصور من ريبة

ولقد أشفق من لم يكونوا يعرفونه ، بل لقد جزع بعض الناس أن تلقى أزمة الحكم فى مثل هذه الظروف فى يدى رجل هو فى زعمهم لم تحسن يداه أن تقبضا على شيء غير المعول ؛ وعجبوا أن تترك الأمور للرجل القادم من الغرب ... لذلك المحامى الذى كان من قبل يخطط الأرض ويوزع البريد ؛ والذى نشأ بين الأحراج ونما كما ينمو وحشى النبات ... وسخط أعداؤه ممن لا يجهلون مقدرته واشتد بهم الغيظ ألا يجلس فى كرسى الرياسة يومئذ إلا هذا الجمهورى الأسود ! هذا الذى يعد فى الجمهوريين

كبيرهم الذى ألمهم ما يلوكونه من عبارات تؤذى الأسماع وتخز القلوب وتقبض الصدور ...

أما الذين عرفوا لنكولن وعرفوا خلاله فما خالطهم شك أنه الرجل الذى ليس غيره فى الرجال تكون على يده السلامة ويتم الخلاص .. والحق لقد خلقت الحوادث هذه الأزمة وخلقت فى الوقت نفسه الرجل الذى ينهض لها والذى لن يقوى على حمل أعبائها سواه .. ولو لم يكن فى أمريكا فى تلك الأيام ذلك الرجل الذى أخرجته أحراجها لتغير تاريخها باتخاذه وجهة غير التى سار فيها

وإنا لنرى فى ابراهام أحد الأفذاذ الذين يبرهنون بأعمالهم على فساد الرأى القائل بأن الظروف هى التى تخلق العظماء ؛ فهذا رجل نجم عن أبوين فقيرين ودرج بين أحراج الغابة وألفافها ؛ فلما واجه الحياة وأخذ يعول نفسه راح يشق طريقه فى زحمتها ومفاوزها كما كان يشق طريقه بين الأدغال ، ولا عاصم له مما يحيط به من مخاوف إلا عزيمته وفتوته

راح ابراهام يستقبل الحياة ويعشى فى مناكبها ، وكأن الظروف كلها من عدوه ؛ فما زال يغالب الظروف وتغالبه ، ويصرعها وتصرعه ، حتى وصل إلى مركز الرياسة فى قومه ، دون أن يستمد المون مرة من أحد؛ أو تكون له وسيلة من جاه أو مال؛ أو حظوة عند ذى قوة، أو غير هذا وذاك مما يبتغى به الناس الوسائل إلى ما يطمحون إليه من غايات ...

ولما أن بلغ هذا المركز كانت البلاد كما أسلفنا تتوثب فيها الفتنة ويتحفز الشر ؛ فكانت الظروف يومئذ كأسوأ ما تكون الظروف ؛ ولكنه على الرغم من ذلك سار إلى غايته غير خائف ولا وان ولا منصرف عن وجهته إلى وجهة غيرها حتى عقد له النصر وتم له أداء رسالته ...

وكيف لعمرى تخلق الظروف العظماء ؟ وكيف يسمى عظيما ذلك الذى تخدمه الظروف فلا يكون له من فضل إلا ما يجيء عن طريق المصادفة ؟ ألا إن العظيم الحق إنما هو الذى تخاصمه الظروف فينجح على رغم ما تكيد له الظروف ؛ وتتجهم له الأيام فيقدم على المظالم على الرغم من تجهم الأيام ، وتعترضه الصعاب الشداد فلا تثنى له عزمه أشد الصعاب. بذلك تكون الظروف هى التى تخلق العظماء ؛ فيكون الرجل الذى يظهر عليها ويظفر على الرغم منها هو العظيم ، ويكون فى ذلك كالدر تظهر النار جوهره

لبث إبراهام فى الفندق ينتظر حتى يتخلى له بيوكانون الشيخ عن قيادة السفينة ؛ وكان إبراهام يستمع إلى دوي العاصفة يزداد يوماً بعد يوم فيتلفت فلا يرى حوله غير سيوارد ؛ ولكن سيوارد وصاحبه لا يلبث أن يدب بينهما خلاف شديد ؛ فلقد كبر على سيوارد ألا يشاوره أبراهام فى الخطبة التى أعدها ليوم الاحتفال وكان قد كتبها قبل أن يسافر من سبرنجفيلد ...

وعلم إبراهام بالأمر فأتى بالخطبة بين يدى صاحبه ؛ فاقترح عليه أن يغير فيها أشياء وأن يضيف إليها أشياء ، فلم ير إبراهام رأيه ؛ على أنه قبل أن يضيف إلى الخطبة خاتمة كتبها سيوارد وتناولها إبراهام بالتغيير ليلتئم أسلوبها مع أسلوب الخطبة ؛ وظن إبراهام أنه أرضى بذلك صديقه ... ولكنه فوجئ فى اليوم السابق ليوم الاحتفال بخطاب من عند صاحبه ينبئه فيه أنه يتحلل من وعده الذى سبق أن قطعه على نفسه بالاشتراك معه فى الحكم ؛ وطوى إبراهام الخطاب متألماً مكتئباً ... ألا ما أشد عنت الأيام ! حتى سيوارد الذى ليس غيره ترجى منه المونة تكون من جانبه العقبات ؟

وأشرقت شمس اليوم الرابع من مارس عام ١٨٦١ ، وكان يوماً من أيام الربيع طلق المحيا رخى النسائم ... تخرج الناس يشهدون موكب الرئيس الجديد ؛ وكان موكب الاحتفال بتولية رئيس الولايات من أعظم ما تهتم به البلاد ؛ وهو فى هذه المرة أجل قدراً منه فى كل ما سلف من الأيام ؛ وذلك لما كان يحيط بتولية إبراهام من ممان تجيش بها نفوس الخصوم والأنصار

وقضى إبراهام صباح ذلك اليوم يقرأ خطبته من جديد ويهذبها بالحذف والإضافة ، حتى متع النهار فجاء بيوكانون إلى الفندق فى عربة فركب معه إبراهام ، والناس على طول الطريق إلى بناء المحافظة (الكابتول) تقع أعينهم على الرجلين ، فهذا هو الرئيس القديم يشيع فى رأسه الشيب ويبدو على بدنه ومحياه الهزال من أثر السنين ومن أثر ما حمل من عبء أوشك أن يلقيه وقد أربى على السبعين ... وهذا هو الرئيس الجديد يبدو قويًّا فتيًّا وهو يومئذ فى الثانية والخمسين ؛ هذا هو الرجل القادم من

الغرب ؛ هذا هو ابن الغابة ... هذا هو النجار تملأ الأعين قامته الطويلة التي تلوح للأعين أكثر طولا إلى جانب صاحبه الشيخ الضئيل ... وهو يرتدى اليوم حلة ما ارتدى مثلها من قبل ، حلة ارتضتها له مارى وهيأتها لذلك اليوم ، ثم هو يقبض بيده الكبيرة التي أكسبها حمل المعول كبرها وخشونتها ، على عصا جميلة أنيقة

وضاقت بالناس الطرقات ؛ وكان رجال الشرطة قد أبعدوا الجموع قليلاً عن حافتي الشارع ، وقد أمرهم كبيرهم ألا يسمحوا بأي عبث بالنظام مهما خيل لهم أنه تافه . وكان كبير الشرطة يخاف أن تمتد أيدى الآثمين إلى الرئيس بالعدوان إذ كانت الاشاعات قد اتخذت مجراها في كل سبيل ، وملأ الهمس بها الآذان ، ووجفت من هول الجريمة قلوب الكثيرين من المخلصين

ووصل الرئيس إلى مكان الاحتفال ، وهو مرتفع أعد لهذا الغرض ، وقد امتلأت الساحة المحيطة به بجموع من الناس حتى ما تتسع بعدهم لقدم ... وكان على مقربة من المكان تمثال وشنجطون وقد نحت من المرمر الأبيض وهو يتلألأ في ضوء الشمس وتنبعث منه معاني البطولة والعظمة والحرية والفداء ...

ووقف الرئيس الجديد يوجه الكلام للشعب جميعاً لأول مرة وقف فتى الأحراج أمام هاتيك الجموع ثبت الجنان ، مستوى القامة ، مرفوع الهامة ، وألقى نظرة أمامه على علية القوم من الشيوخ والأعيان ورجال الجيش ورجال الدين والقضاة وغيرهم وغيرهم ثم مدّ بصره في الجموع وقد سكنت ريحهم فتهيأ للكلام ... ولكن ماذا عراه ؟ لقد وقف يمسك بإحدى يديه عصاه وبالأخرى قبعته ، فكيف يمسك الورق لينلو منه خطبته ؟ ها هو ذا يسند العصا إلى الحاجز الخشبي أمامه فأين يضع القبعة ؟ لقد أوشك أن يقع في ورطة ، وأوشك أن يثير ضحكات الخصوم بحيرته ؛ ولكن ها هو ذا رجل يثب من مكانه وكان يجلس منه في سمت بصره ، فيأخذ القبعة من يده ... ومن هو ذلك الرجل ؟ إنه دوجلاس خصمه القديم ومنافسه ذو البأس الشديد ...

وكان دعاة الانسحاب من أنصار الجنوب يأملون أن يتهدد لنكولن الولايات الجنوبية ويتوعد ، فيشتد بذلك الهياج في تلك الولايات ويتعذر بعدها أن يجنح هؤلاء للسلم ، ولكن لنكولن خيب ظنونهم وزادهم بحكمته وحصافته وبعد نظره ويقظته غماً على غم ...

كانت خطبته خير مثال للاعتدال في غير تفريط ، وللتواضع في غير استخذاء أو استسلام ، وللتحذير في غير إثارة أو استفزاز ، وللمرونة في غير رياء أو التواء ، وللعدالة في غير مشادة أو عناد .. كما كانت كالسلسل العذب فصاحة وسهولة ؛ ناهيك بما امتازت به من نصوع البرهان ومتانة الحجة واستقامة المنطق وجمال السبك وبراعة السياق ودقة الالمام بالموضوع ، وسعة الاحاطة بما كان يشغل الأذهان

وكان الخطيب رنان الصوت ، قوى الجرس ، وثيق الاشارات تشيع في كلماته حرارة الايمان وقوة اليقين وصدق الاخلاص فتنفذ إلى قلوب أنصاره وخصومه على السواء ؛ وإن كان خصومه ليكرهون فوزه ويتكرون مبادئه ...

قال يشير إلى مخاوف أهل الجنوب : « يظهر أن المخاوف تنتشر في الولايات الجنوبية ، ومبعثها أن قبولهم الحكم الجمهوري من شأنه أن يعرض أملاكهم وسلامتهم وأمنهم على أشخاصهم للمخاطر . إنه لم يكن هناك سبب معقول لهذه المخاوف ؛ بل لقد قامت بينهم أقوى شهادة على نقيض ذلك ، وكانت دائماً تحت سمعهم وبصرهم ... إنها تكاد توجد في كل خطبة من خطب ذلك الذي يحدثكم الآن ، وإني لأقتبس من إحدى تلك الخطب حين أقول ليس لي من غرض مباشر أو غير مباشر في التدخل في نظام العبيد في الولايات التي يقوم فيها ذلك النظام ... وإني أعتقد أنه ليس من حق أن أفعل ذلك ، وأن الذين رشحوني وانتخبوني إنما فعلوا ذلك وهم على علم تام أني صرحت كثيراً بمثل هذا ، ولم أتزحزح مرة عما قلت »

ولم يقف الرئيس في اعتداله عند ذلك الحد ، بل لقد ذهب إلى التصريح بأن العبد الفار إلى الولايات الحرة لا تمنح له الحرية . ولقد أشفق كثير من أنصاره من هذا التصريح ، ولكن لنكولن يستند في ذلك التصريح إلى مبادئ الحزب التي لا يمنح بمقتضاها العبد حريته إلا إذا ذهب مع سيده غير فار إلى ولاية حرة وأقام فيها

وتكلم لنكولن عن انسحاب الولايات من الاتحاد فقال : « لن يخول القانون لأية ولاية حق الانسحاب » ثم أردف قائلا إن القسم الذي أقسمه على المحافظة على الدستور يجعل لزاماً عليه أن يقوم بواجبه فيعمل على أن يكون قانون الولايات المتحدة نافذاً في جميع الولايات . واختتم الحديث في هذا الموضوع بقوله : « إني واثق أنكم لن تحملوا على التهديد كلامي ، بل إنها كلمة

الاتحاد يعلن أنه سوف يحمى ويدعم بناءه على أساس من الدستور. وهو إذ يفعل ذلك لا يرى ثمة حاجة إلى سفك الدماء والعنف ، وسوف لا يكون شيء من هذا إلا إذا أجبرت عليه السلطة القومية

وأشار إلى الوحدة من الناحية المضوية فقال إن نصف الشعب لا يستطيع أن يقوم بغير النصف الآخر ، وإذا كان فى الدستور عيب فمن الممكن إصلاحه على يد مؤتمر يجتمع فيه ممثلو الشعب . فاذا رأى الشعب الانفصال حقاً لكل ولاية فله رأيه وليفعل كما يرى ، أما هو فليس لديه من قوة إلا ما منحه الشعب

وتكلم عن الداعين إلى الثورة فقال إنه لا مبرر للثورة إلا إذا لجأت الأغلبية إلى الطغيان ؛ ومثل هذا المبرر لا وجود له ، وإن الانسحاب معناه الفوضى ولا نتيجة للفوضى إلا الاستبداد ...

واختتم لنكولن خطبته بتلك العبارة التى اقترحها سيوارد وتناولها هو بالتعديل قال: « لسنا أعداء بل نحن أصدقاء؛ ويجب ألا نكون أعداء . ومع أن الغضب قد جذب حبال مودتنا فيجب ألا يقطعها ؛ وإن الأناشيد الخفية التى ترن فى الذاكرة منبعثة من كل ميدان من ميادين القتال ومن كل قبر من قبور الوطنيين ، إلى كل قلب حى وإلى جانب كل موقد فى هذه البلاد العريضة لتزيد فى جوقة الاتحاد ، إذا ما مسها من جديد كما نشق أنها ستمس — وحى من طبيعتنا

وأقسم إبراهام اليمين وعمله على الانجيل . وتولى صيغة القسم القاضى تين صاحب قضية دروسكوت الشهيرة وكان يومئذ القاضى الأعلى للبلاد . وبعد أن أدى إبراهام اليمين أن يحترم الدستور ويحافظ على قوانين البلاد سار إلى البيت الأبيض ، وكان أول عمل له بعد وصوله أن تناول القلم فكتب إلى سيوارد الخطاب الآتى :

« سيدي العزيز : تسلمت رقعتك المؤرخة ٢ الجارى التى تسألنى فيها أن أقبل انسحابك من الاشتراك معى فى إدارة الحكم ؛ ولقد كانت رقعتك هذه سيئاً لأعظم قلق عندى إيلاما ، وإنى لأشعر أنى مضطر إلى أن أرجوك أن تلغى هذا الانسحاب . إن الصالح العام ليدعوك أن تفعل هذا ، وإن شعورى الشخصى لينجه فى شدة فى نفس الاتجاه . أرجو ان تتدبر وأن يصلنى رد منك فى الساعة التاسعة من صباح الغد ... خادمك المطيع ...»

« يتبع » الخفيف

تيسير قواعد الاعراب

لأستاذ فاضل

— ٥ —

تطبيقات

فرغنا فى مقالاتنا السابقة من ذكر مؤاخذاتنا على جماعة وزارة المعارف فيما رأته من تيسير قواعد الاعراب ، وكان سبيلنا فى هذا مخالفاً لسبيل غيرنا فى مؤاخذاته عليها ، لأنا نتفق معها فى غايتها من الاصلاح ، فهدمنا من عملها لنبنى أتم منه ، وأبطلنا من رأيها لنصل فى الرأى إلى ما لا يمكن هدمه ، فنعلو به كلمة الاصلاح ، وينتصر ما تريده من التجديد النافع . وقد بلغنى عن صديق لى أن عضواً بارزاً من هذه الجماعة ذكر له أنه معجب بما كتبناه فى ردنا عليهم ، فلا أدرى ما يمنعه من ذكر رأيه فيما كتبناه من ذلك على صفحات مجلة الرسالة الغراء ، ليتبين الحق فى هذا الموضوع ونصل إلى ما تريده وزارة المعارف من الاصلاح فى قواعد الاعراب

وإنى أريد الآن أن أذكر تطبيقات على ما ذهبت إليه فى إصلاح هذه القواعد ، ليتبين أن ما ذهبت إليه من هذا مذهب مطرد ، ورأى لا شذوذ فيه ولا اضطراب

التطبيق الأول

ألا إنَّ قلبي لدى الظاعنينَ حزينٌ فمن ذا يُعزِّى الحزينا

(ألا) أداة استفتاح مجزومة بالسكون (إن) حرف توكيد منصوبة بالفتحة (قلبى) مبتدأ منصوب بفتحة مقدرة قبل ياء المتكلم ، وهو مضاف وياء المتكلم مضاف إليه مجرور بكسرة مقدرة على آخره (لدى) ظرف مكان منصوب بفتحة مقدرة على آخره ، وهو متعلق بحزين مقدم عليه ، ولدى مضاف والظاعنين مضاف إليه مجرور بالياء نيابة عن الكسرة (حزين) خبر المبتدإ مرفوع بالضمة (فمن ذا) الفاء للتفريع منصوبة بالفتحة ، ومن اسم استفهام مبتدأ مرفوع بضمة مقدرة فى آخره